مقال تحليلي

تعميق التفاهم: العلاقات الروسية الإيرانية في ظل التحولات الدولية.

أحمد السيد – علي عاطف

باحثان بالمركز المصري للفكر والدراسات الاستراتيجية

دفعت التحديات الإقليمية والدولية الراهنة كلًّا من روسيا وإيران إلى تعزيز علاقاتهما على المستوى الاستراتيجي بشكل أكبر، فضلًا عن التقارب القائم بينهما فيما يتعلق بمجال السياسة الخارجية. وتتخذ حكومتا البلدين خطواتٍ وإجراءاتٍ عدة منذ أشهر تحاولان من خلالها تنمية العلاقات بشكل أكثر عمقًا، جاءت على رأسها الزياراتُ رفيعة المستوى التي يتبادلها ويكثّفها مسئولوهما خلال العام الجاري. وكان أبرز هذه الزيارات زيارة الرئيس الروسي "فلاديمير بوتين" إلى طهران في يوليو 2022 للمشاركة في مجموعة عمل "أستانا" المتعلقة بالأزمة السورية.

ويُظهر هذا التقارب الروسي الإيراني الاستخدام المتزايد للبراجماتية في السياسة الخارجية لكلتا الدولتين، معتبرين أن أي قوة غير غربية هي شريك مُرحب به، حتى لو كانت هناك بعض التناقضات أو اختلاف وجهات النظر قد تشوب علاقات الدولتين.

وفي هذا الإطار، برزت مؤخرًا عدةُ محفزّاتٍ أمام البلدين عملت على تعميق العلاقات الثنائية بينهما. وكان للحرب الروسية الأوكرانية نصيب لا بأس به من هذه المحفزّات. في السياق ذاته؛ تسعى موسكو وطهران لتعزيز تعاونهما الوثيق في عدد من الملفات الإقليمية والدولية ذات المصالح المشتركة. إضافة لتنسيق موقفهما فيما يتعلق بكيفة الرد على العقوبات الدولية المفروضة عليهما من قبل الغرب والولايات المتحدة الأمريكية. كما يشترك البلدان في عدد من المنظمات والتجمعات الإقليمية كمنظمة شنغهاي للتعاون، والاتحاد الاقتصادي الأوراسي، ما يؤطّر من ناحية أخرى تعاونهما الوثيق.

ECSS
المركز المصري
للفكر والدراسات الاستراتيجية
EGYPTIAN CENTER FOR STRATEGIC STUDIES

يسعى "المركز المصري للفكر والدراسات الاستراتيجية" إلى تقديم الرؤى والبدائل المختلفة بشأن القضايا والتحولات الاستراتيجية، على الصعيد المحلي والإقليمي والدولي على حد سواء. ويولي اهتمامًا خاصًا بالقضايا والتحولات ذات الأهمية للأمن القومي والمصالح المصرية.

المركز المصري للفكر والدراسات الاستراتيجية

ecss.com.eg
/ecsstudies

وفي ضوء ذلك، نتطرق فيما يلي لأهم العوامل التي دفعت الدولتين على حد سواء لتوطيد علاقاتها بشكل أكبر مع الطرف الآخر.

أولًا: الدوافع الروسية

الحرب الروسية الأوكرانية

فرضت الحرب الروسية الأوكرانية حالة من إعادة التجاذبات على المستوى الدولي خلال الأشهر الأخيرة، وذلك مع قيام الولايات المتحدة الأمريكية بالعمل على عزل روسيا دوليًا وفرض عقوبات متعددة عليها، الأمر الذي دفع موسكو لتعميق علاقاتها مع شركاء يمكن الوثوق بهم كالجمهورية الإسلامية الإيرانية.

وفي هذا السياق، يُمكن النظر إلى السياسة الروسية تجاه طهران على أنها حالة سياسية يمكن أن تسير في اتجاه واعد، خاصة مع اختيار إيران اتباع موقف محايد فيما يتعلق بالتدخل الروسي في أوكرانيا منذ بداية الصراع العسكري في 24 فبراير، كما يُمثل هذا التقارب محاولة روسية إيرانية للالتفاف حول العقوبات الأمريكية والغربية من جانب، وتشكيل محور مُناهض للغرب والولايات المتحدة الأمريكية من جانب آخر.

ويمكن لنا أن نطلق على هذه الحالة شراكة براجماتية بين الدولتين تُظهر العلاقة العميقة والمتوازنة بينهما.

المصالح المُشتركة

دفعت التحديات الدولية الراهنة كلا البلدين لتعميق تعاونهما على كافة المجالات، فحجم التبادل التجاري بين البلدين بلغ ما يقرب من 33 مليار دولار في عام 2021 ومن المتوقع أن تصل التجارة الثنائية إلى مستويات أعلى بحلول نهاية عام 2022. كما أن زيارة "بوتين" الأخيرة لطهران حملت بعض النتائج الإيجابية، كإعلان البنك المركزي الإيراني البدء بالتعاملات المالية بين إيران وروسيا بالعملات الوطنية للبلدين.

هذا بالإضافة إلى قرار بزيادة عدد الرحلات الجوية بين روسيا وإيران إلى 35 رحلة أسبوعيًا، والإعلان عن وضع اتفاقية لتوريد قطع غيار الطائرات وأعمال الصيانة، والتخطيط لتخصيص 1.5 مليار دولار لتطوير مشاريع السكك الحديدية في إيران. فضلًا عن زيادة استخدام نظام الدفع الإلكتروني "مير" (Mir) التابع لروسيا ليحل محل نظام "سويفت" (SWIFT) للمعاملات المالية، التي مُنعت البنوك الروسية من استخدامه بعد اندلاع الحرب الروسية الأوكرانية.

احتياج مُتبادل

يأتي التركيز الروسي على إيران لكون الأخيرة لاعبًا رئيسيًا في المنطقة نظرًا لموقعها الاستراتيجي. ونظرًا لطبيعة علاقات كلٍ منهما مع الدول الغربية، فإن العلاقة بين البلدين تسير بوتيرة ثابتة، حيث إن كلا منهما يُبحر في نفس القارب.

وردًا على العزلة الدولية والعقوبات المفروضة على الدولتين، فإن سعي موسكو لبلورة علاقات أعمق مع إيران؛ من المرجح أن يُفيد موسكو وطهران على السواء من خلال تعميق علاقاتهما الاقتصادية سعيًا للتخفيف من حِدة العقوبات.

وتأتي أهمية إيران بالنسبة لروسيا من كون طهران قد تُساهم في دعم موسكو ضد الناتو، من خلال تقديم عدد من المساعدات منها المساعدات العسكرية، خاصة الصواريخ الباليستية وصواريخ كروز، كما تحتفظ طهران ببرنامج صاروخي كبير وسريع التطور ويمكن أن تساعد القوات الروسية على تجديد مخزوناتها الصاروخية بالمتغيرات الإيرانية.

كما أن تقارب روسيا مع إيران يأتي في سياق رؤية الكرملين الاستراتيجية التي تتمحور حول الاتجاه نحو الشرق، حيث تحركت روسيا لتوسيع علاقاتها مع الصين والهند، باعتبارهما القوتين المُرشحتين لاحتلال المرتبة الأولى والثالثة على التوالي، كأكبر اقتصادات في العالم، وعززت هذه الخطوة من أهمية إيران كجارة لروسيا وكجزء من رؤية الكرملين الاستراتيجية.

ومن خلال تعميق التعاون مع إيران، يسعى بوتين إلى الاستفادة من خبرة القادة الإيرانيين في العمل في ظل العقوبات الدولية الشديدة.

العداء المُشترك للغرب

تعميق العلاقات بين موسكو وطهران سيهدد مصالح الولايات المتحدة وحلفائها في أوروبا والشرق الأوسط وبقية العالم، حيث يمكن للدعم الإيراني أن يساعد روسيا في تحقيق مكاسبها العسكرية في أوكرانيا وأوروبا الشرقية. كما أن هذا التعاون يُشير لحقيقة أن كلا البلدين يحاولان التحرك نحو تحالفات مضادة للغرب، بشكل يُظهر أهمية الدولتين في الشئون العالمية.

ثانيًا: الدوافع الإيرانية

منذ سقوط الاتحاد السوفيتي عام 1991، تعددت العوامل التي دفعت إيران إلى تعزيز علاقاتها مع روسيا. وقد جاءت هذه العوامل نتيجةً مباشرة لطبيعة توجهات

السياسة الخارجية الإيرانية والتي تبلورت بدورها قبل انهيار الاتحاد السوفيتي بسنوات، حيث قادت هذه العواملُ طهرانَ إلى أن تحافظ على نوعٍ من العلاقات الاستراتيجية مع موسكو. وقد ظلت هذه العلاقات تتطور ولكن في إطار محدد، وقد مثّل الهدفُ الإيراني بشأن إيجاد حلفاء في إطار "المواجهة الإيرانية مع الغرب" أهمَّ أركانه.

ومع ذلك، تلعب التداعيات الدولية، التي لا تزال تفرزها الحربُ الروسية الأوكرانية الجارية، دورًا في توجّه طهران لتعزيز علاقاتها مع موسكو بشكل أكثر عمقًا، كما تقود الأوضاع الاقتصادية الداخلية في إيران من ناحية أخرى حكومة ذلك البلد إلى محاولة إنقاذه عن طريق التعاون مع بلدان عدة من أبرزها روسيا.

وفي ضوء ما سبق، نتناول فيما يلي أبرز العوامل التي دفعت إيران مؤخرًا إلى توطيد علاقاتها بشكل أوثق مع روسيا:

الوضع الاقتصادي والعقوبات المفروضة على طهران

منذ تولّي حكومة الرئيس الإيراني الحالي، إبراهيم رئيسي، عملها في أغسطس 2021، وفي إطار تحركها لتخفيف الضغوط الاقتصادية المحلية، سعت هذه الحكومة إلى تحقيق انفراجة كبرى في العلاقات مع موسكو. وعلى الرغم من ذلك، يُعد هذا التوجه المذكور جزءًا أصيلًا من رؤية حكومة "رئيسي" التي تتركز حول إيجاد حلول "بديلة" للأزمات الاقتصادية عن طريق تعزيز التعاون الاستراتيجي ذي الصلة مع الحلفاء والجيران.

لذا، وضعت طهران موسكو خيارًا رئيسيًا في سبيل تطوير التعاون الاقتصادي معها؛ من أجل تحقيق انفراجة محلية في المجال الاقتصادي، خاصة في ظل وقوعها تحت عقوبات مكثّفة منذ سنوات طوال. وفي إطار ذلك، تسعى إيران إلى عقد اتفاقية اقتصادية طويلة المدى لمدة 20 عامًا مع موسكو تشمل استثمارات ضخمة وخططًا لتبادل تجاري واسع النطاق.

وبناءً على ذلك، تتحرك إيران منذ أشهر لتقوية علاقاتها الاقتصادية طويلة المدى مع موسكو، مدفوعة بالتصعيد الأخير بين روسيا والغرب على إثر الأزمة بين موسكو وكييف وفرض عقوبات متعددة ضد الأولى.

ولا يأتي نمط التحرك الإيراني هذا مع روسيا بعيدًا عن نهجها في التعامل مسبقًا مع الصين، وذلك حينما توصّلت معها في مارس 2021 إلى اتفاقية لمدة 25 عامًا، ولكن حكومة إبراهيم رئيسي قد أولت لهذا النهج اهتمامًا رئيسيًا وأطّرت له في دائرة سياسة طهران الخارجية منذ مجيئها.

حالة عدم التيقن الإيراني بشأن الثمار الاقتصادية للاتفاق النووي

أوجد إعلان الرئيس الأمريكي السابق "دونالد ترامب" في مايو 2018 بشأن خروج واشنطن من الاتفاق النووي مع إيران المبرم عام 2015 حالة من عدم التيقن لدى طهران بشأن مستقبل الاتفاق النووي، الجارية مفاوضاتُه في النمسا منذ أبريل من العام الماضي، ومدى استمراريته من عدمه مُستقبلًا.

في هذا السياق، خلقت هذه الحالة هواجس لدى إيران تتعلق بمدى فعالية الاتفاق النووي، المحتمل التوصل إليه خلال الأسابيع المقبلة، خاصة على المستويات الاقتصادية وحجم الثمار الاقتصادية التي يمكن حصادها من الاتفاق، وذلك في وقت تُعد فيه الدوافع الاقتصادية أولوية قصوى لدى طهران عند الحديث عن دوافع انخراطها في المباحثات النووية.

لذا، عززت هذه الهواجس الاقتصادية من انخراط إيران في مباحثات متعددة الأطراف مع الدول الحليفة أو الجارة بغية عقد اتفاقيات اقتصادية على مستويات مختلفة تبدأ من بروتوكولات تجارية محدودة إلى اتفاقيات اقتصادية استراتيجية طويلة المدى. وكان من أبرز هذه الدول روسيا التي وقعت شركةُ نفطها القومية "جازبروم" في يوليو 2022 أكبر اتفاقية استثمار أجنبي في قطاع النفط الإيراني تشمل استثمارات من جانب موسكو بحوالي 40 مليار دولار في تطوير حقول نفط إيرانية.

الحاجة إلى التعاون الأمني والعسكري في منطقة الشرق الأوسط

فرضت الحرب الروسية الأوكرانية واقعًا جديدًا أمام موسكو فيما يخص الملف السوري، وذلك مثلما أوجد استيلاء حركة "طالبان" الأفغانية على السلطة في "كابل" منذ عام واحد وضعًا أمنيًا مختلفًا بشكل نسبي أمام طهران على حدودها الشرقية. وفي الوقت نفسه، تربط الطرفين مصالحُ قوميةٌ مشتركة فيما يتعلق بكيفية إدارة أو مواجهة هذه التحديات الجديدة ليس فقط فيما يخص هذين الملفين، بل يتعداهما إلى ملفات أخرى لعل من بينها منطقة آسيا الوسطى.

أما فيما يتعلق بالملف السوري، فإن روسيا قد اضطرت بعد اندلاع الحرب مع أوكرانيا إلى تخفيض مستوى انخراطها عسكريًا داخل الأراضي السورية وانسحبت، كما تشير تقارير دولية، من بعض المواقع الميدانية هناك.

وبالتزامن مع ذلك، تحاول إيران ملء هذا الفراغ الروسي في الوقت الذي يبدو فيه أن روسيا لن تجد حليفًا في سوريا أقرب من إيران لملئه، ما يعني أن طهران صارت في حاجة إلى التنسيق مع روسيا داخل سوريا بشكل أكثر قربًا مقارنة بالأعوام الأخيرة التي أعقبت الإعلان عن هزيمة تنظيم "داعش" الإرهابي هناك في عام 2019 والتي شهدت تصاعدًا في مستوى التوتر بين طهران وموسكو في سوريا؛ لأسباب تتلخص في السعي لتعزيز النفوذ داخل سوريا بعد هزيمة ذلك التنظيم الإرهابي.

وفي أفغانستان، تسعى العاصمتان طهران وموسكو إلى محاولة السيطرة على الأوضاع الأمنية في ذلك البلد عقب سيطرة حركة "طالبان" على الحكم العام الماضي. إذ إن استمرار تدهور الحالة الأمنية في أنحاء أفغانستان وخروجها عن السيطرة سوف يمثل تهديدًا كبيرًا لأمن الدولتين كذلك، علاوة على خشية البعض من تنامي الحركات الإرهابية في منطقة آسيا الوسطى ككل، مما سيشكل تحديًا أمنيًا كبيرًا لطهران وموسكو. لذا، تحاول الدولتان العمل من أجل عدم وصول الوضع الأمني في أفغانستان إلى الفوضى المطلقة.

رغبة إيران في عدم هزيمة روسيا في الحرب الأوكرانية

لعل الأنباء المتداولة بشأن "استعداد" إيران لإمداد روسيا بمئات الطائرات المسيّرة من دون طيّار قد يفسر لنا عاملًا هامًا من العوامل التي تدفع إيران إلى تعزيز التقارب مع موسكو مؤخرًا. إذ إنه وفي إطار ما يبدو من تحالف روسي صيني إيراني أمام تكتل الولايات المتحدة والدول الغربية، تدرك إيران أن هزيمة روسيا في الحرب الأوكرانية سوف يتسبب في ضعف موقفها السياسي وحتى العسكري مستقبلًا على المستوى الإقليمي والدولي أيضًا؛ إذ إن البلدين يرتبطان بتحالف سياسي وعسكري قوي إلى جانب الصين وبعض البلدان الأخرى. وعليه، فإن طهران تسعى في الوقت الحالي للتقارب بشكل أكبر مع روسيا على مستويات عدة، من بينها الاقتصادي، في محاولة لمساعدتها.

رؤية استشرافية

رغم قوة المُحفزات الداعمة لتعميق التقارب الاستراتيجي الروسي الإيراني، إلا أن هناك بعض التخوفات من أن التقارب الحالي تفرضه المعطيات الدولية الراهنة، وقد لا يُعول عليه كثيرًا في المُستقبل، حيث كانت روسيا قد صوتت لصالح ستة قرارات لمجلس الأمن الدولي تفرض عقوبات على إيران. كما أبرمت روسيا اتفاقيات ثنائية مع الدول المطلة على بحر قزوين، إضافة للتنافس الروسي الإيراني حول الطاقة.

وفي هذا السياق، قد يكون التحالف الاستراتيجي الحالي بين روسيا وإيران تحالفًا مؤقتًا، مع وجود احتمالات قائمة لأن تتحول العلاقات الروسية الإيرانية لتحالف كامل لا يشوبه اختلاف، حيث إن الطرفين يختلفان حول عدد من القضايا، خاصة المتعلقة بالشرق الأوسط وكيفية حل النزاعات الإقليمية.

ولكن في الوقت نفسه، لا يعني هذا إمكانية حدوث توتر كبير في العلاقات بينهما؛ إذ إن وضع النظام الدولي القائم على الأقل في المدى المنظور يقودنا إلى القول بأن علاقات موسكو-طهران سوف تظل قائمة على النحو الحالي لسنوات غير قليلة. كما أن الأزمة الروسية الأوكرانية الأخيرة قد أثبتت بما لا يدع مجالًا للشك أن علاقات موسكو وطهران استراتيجية وقوية للغاية على الرغم من بعض أوجه الاختلاف المُشار إليها آنفًا. وأخيرًا، فإن نهج روسيا القائم على الواقعية يجعل من الممكن باستمرار التركيز على المجالات ذات الاهتمام المشترك.